بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 4 يناير 2016

في البدء كان الجسد:

قصّة آدم وحوّاء في النصوص المقدّسة

حمّادي المسعودي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015
All rights reserved © 2015

الملخّص:

إنّ المتأمّل في النصوص الدينية، على اختلاف أصنافها ومضامينها، يتبيّن أنّها اشتغلت بمسألة الجسد في وضعيات متباينة، ووقفت منه مواقف متنوّعة متناقضة أحياناً، بحسب اختلاف تلك النصوص (مقدّسة، فقهية، تصوّف، موعظة، قصّة... إلخ)، لكنّها تلتقي كلّها، تقريباً، في الميل إلى الستر، والحجب، والقناع، وتنأى كثيراً عن رسوم أخرى، في مجالات معرفية أخرى.

لقد رأينا الجسد يُستر بورق التّين في قصّة الخلق، ويُمنع من اللذّة في قصّة يوسف، ويتكثّف حضور مفاتنه في سفر (نشيد الأنشاد)، وفي الجنّة القرآنية، ويُصلب ويتألّم في نصوص (العهد الجديد)، ويتلذّذ بالألم في آثار المتصوّفة. بيد أنّ الجسد، بكلّ ألوانه، يظلّ حاملاً علامات دالّة، مختزلاً تاريخاً طويلاً، معبّراً عن أنواع شتّى من الثقافات والحضارات، محمّلاً بالعديد من الدلالات، ناهضاً بوظائف كثيرة، وهو مخزن جميع المتع ومصدرها.

إنّنا نسعى، في هذا المقال، إلى إبراز الجسد في قصة الخلق الكونية، باعتباره لغة تواصل بليغة. ونروم، كذلك، أن نتبيّن كيف أكسب الإنسان الكون معنى ساعة خلق آدم؟ وكيف أخرج خلقُ آدم وحوّاء العالم من العدم إلى الوجود، ومن السكون والصمت إلى الحركة والنطق؛ إذ لولا خلق الكائن البشري لما كان للكون معنى؟ وسنعالج، من ناحية أخرى، كيفية حضور راوٍ عليم يُنشئ كوناً سردياً عجيباً، في غياب الآلهة التي خلقت الكون بدءاً.

1- بناء القصّ: القصّة من الجمع إلى التشتّت:

ما يُلاحظ، في بناء القصّ «في العهد القديم» (**سفر التكوين**)، وفي بعض السور القرآنية، أنّ النسيج النصّي في قصّة آدم وحواء لا ينحو المنحى نفسه، ففي (**سفر التكوين**) ترد القصّة كلّاً متكاملاً، تتتالى فيها الأحداث منتظمة خالية من التكرار، تنطلق من نقطة مّا في المكان والزمان، وتتّجه نحو غاية مرسومة لها. أمّا في السور القرآنية، فإنّ القصّة ترد مشتّتة المقاطع، أو هي موزّعة على مواضع في سور مفصول بعضها عن بعض، ويقتضي هذا الوضع من الدارس الإلمام بجميع المقاطع القصصية المبثوثة في العديد من السور، حتّى يستوفي ملامح القصّ، أو علامات القصّة الواحدة في النصّ القرآني، فقصّة آدم وحواء موزّعة في العديد من السور، وهي ترد مكتملة في سور البقرة (من الآية 30 إلى الآية 39)، والأعراف (من الآية 11 إلى الآية 27)، والحجر (من الآية 26 إلى الآية 49)، والإسراء (من الآية 61 إلى الآية 65)، وطه (من الآية 116 إلى الآية 127)، وص (من الآية 71 إلى الآية 88).

بيد أنّ تشتيت القصّة، في مواضع متباعدة في النصّ القرآني، لا يدّل على الاختلاف والتنوّع في البنية القصصية، فالبنية الدنيا للقصّة حاضرة في السور المذكورة سابقاً، مع حضور وظائف في قصص، وغيابها في قصص أخرى[1]؛ بل يدّل على التكرار في القصّ، فأغلب المقاطع، التي نقرأها هنا، يمكن أن نعيد قراءتها هناك دون فارق كبير، ما يجعلنا نذهب إلى القول: إنّ الحكي في (**سفر التكوين**) يتّسم بخصائص الثقافة الكتابية، التي ترسّخت عبر مراحل التدوين التي عرفتها نصوص «العهد القديم». أمّا الحكي في القرآن، فقد ظلّ حاملاً علامات المشافهة، على الرغم من تحوّل الوحي إلى نصّ مكتوب، منذ النصف الأول من القرن الهجري الأوّل، وعلامات المشافهة عديدة ومتنّوعة في النصّ القرآني، وهي جديرة بالدراسة في بحث مستقلّ.

والملاحظ، كذلك، أنّ قصّة آدم وحوّاء لا ترد في القرآن لتختم قصة الخلق كاملةً، مثلما نجد ذلك في (سفر التكوين)، وفي الكثير من المصنّفات الإسلامية الأخرى، وإنّما ترد مستقلّة عن القصّة الإطار، وقصّة الخلق في القرآن -إذا جاز لنا أن نعدّها قصّة- مختزلة جدّاً؛ إذ لا تتجاوز الآية الواحدة في بعض السّور؛ لأنّ عملية الخلق ترد مجملة، يذكر فيها أنّ الكون خُلِق في ستّة أيّام [ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام وما مسّنا من لغوب] [ق: 38/50]. ويتكرّر ذكر خلق السموات والأرض، وما بينهما، في العديد من

[1]- لم يرد اعتراض الملائكة على خلق آدم، ولا ذكر خلقه، وتعلّمه الأسماء، وتفوّقه على الملائكة في المعرفة، في سورة البقرة، ولم يذكر المنع والخرق في سورة الحجر، والإسراء، وص.

المواضع المتفرّقة من القرآن[2]، ولا نجد ربطاً في القرآن بين خلق الكون وخلق آدم الإنسان، ولا ذكراً لاسم حواء إذا استثنينا الإشارة إليها بالزوج أو بالأنثى [خلق الزوجين الذكر والأنثى] [النجم: 45/53]. أمّا خلق آدم في القرآن، فنقرأ حوله أكثر ممّا نلفيه في (سفر التكوين)[3]، لكنّ الآيات المتعلّقة به ترد موزّعة على العديد من السّور، مفصولة عن الآيات التي تتحدّث عن خلق الكون.

إنّ قصّة آدم وزوجه لا ترد لتعبّر عن مرحلة تتويج لكامل عملية الخلق، مثلما هو الشأن في «العهد القديم»، فقصّة الخلق في التوراة تتألّف من مقاطع ترد متتابعة متتالية في الزمان، من اليوم الأوّل إلى اليوم السادس، فيحدّد الراوي ما خلقه الإله في كلّ يومٍ من هذه الأيّام الستّة، وتروى قصّة خلق آدم وحوّاء في المقاطع الأخيرة منها؛ أي في المرحلة الأخيرة من عملية الخلق، وهي، بذلك، تنتمي إلى ما يسمّيه بول ريكور (Paul Ricœur) التاريخ البدئي (L'histoire Primordiale)[4]، الذي يمثّل خلق آدم وحوّاء حلقة من حلقاته، وهو تاريخ أسطوري مطلق غير قابل للضبط (non datable)، وإذا ما كان التتالي الزّمني مهمّاً، ساعة كتابة أسفار «العهد القديم»، بما أنّ هذه الكتب تؤرّخ لعلاقة إلهٍ بشعبه، بدءاً من قصّة الخلق، فإنّ الأمر في القرآن مختلف تماماً؛ لأنّ النصوص فيه لم ترتّب ترتيباً تعاقبيّاً في الزمان، وهذا الترتيب لم يكن مهمّاً زمن تدوين القرآن، لكنّه كان مهمّاً جدّاً أثناء مراحل تدوين أسفار «العهد القديم». لكنّ الزمن يظلّ في النصين بدئياً أسطورياً مطلقاً.

2- في البدء كان الكائن الخُنْثى: الخلق والفلق

تروي النصوص المقدّسة أنّ أصل الوجود البشري كان خلق آدم، بما أنّه كان أوّل الإنسانية في الخلق، ثمّ جاء خلق الكائن الفرع، عندما خلقت الآلهة حوّاء/ المرأة. لكن هل هذا الترتيب في الخلق يدلّ على التفاضل في المنزلة؟ هل علاقة الذكر/ آدم بالأنثى/ حوّاء هي علاقة الأصل بالفرع، أو الأساسي بالثانوي، أو الجوهر بالعرض؟

[2]- انظر: الحجر: 85/15، الأنبياء: 16/21، ص: 27/38، الدّخان: 38/44، الأحقاف: 3/46، الإسراء: 99/17، يس: 81/36...

[3]- انظر: السجدة 32 من الآية 7 إلى 9. المؤمنون 23 من 12 إلى 14

[4]- André La Coque/Paul Ricœur, Penser la bible Ed. Seuil 1998, p57.

إنّنا لا نظنّ ذلك، وإن ذهب الكثير من مفسّري النصوص المقدّسة إلى مثل هذا الرأي؛ إذ كان وجود هذا الفرع ضرورياً، وقد كشف الكون عن كونه لا يمكن أن يكون ما لم يكتمل بإنشاء الأنثى، ولمّا خُلقَت حوّاء كان تمام الخلق.

كان آدم/ الذكر آخر الخلق زماناً قبل حوّاء/ المرأة، لكنّ دورة الخلق لم تُغلَقْ نهائيّاً بخلقه؛ إذ أدرك الربّ الإله وجود خللٍ، وكان عليه أن يتدارك ذلك، وأن يسدّ هذه الثغرة الموحشة، وهذا الفُطُور الواضح: «ثمّ قال الرّبّ الإله: ليس مستحسنًا أن يبقى آدمُ وحيداً، سأصنع له معيناً مشابهاً له»[5].

وفي الحقيقة، لم يكن الصانع/ الخالق الوحيد الذي أدرك هذا الفطور في الخلق، فآدم شعر هو الآخر بغربته وسط كائنات يجد كلّ نوع منها مشابهاً له، «غير أنّه لم يجد لنفسه معيناً مشابهاً له، فأوقع الرّبّ الإله آدم في نوم عميقٍ، ثمّ تناول ضلعاً من أضلاعه، وسدّ مكانه باللّحم، وعمل من هذه الضّلع امرأة أحضرها إلى آدم»[6].

لم تخلق حوّاء الأنثى من مادّة مستقلّة، وإنّما اقتُطِعَت من جسد آدم، فيكون الجسد هنا مادّة خلقٍ استعملها الإله لينشئ منها كائناً مستقلاً هو الأنثى، وقد نتساءل هنا: لماذا لم يخلق الإله الأنثى من مادّة غير جسد آدم؟ لِمَ لَمْ يعمد إلى خلقها من تراب/ طين مثلما فعل عند خلق آدم؟ إنّ خلق آدم كان من مادّة مواتٍ (التراب/ الطين/ الصلصال)، حسب ما ذُكِرَ في الروايتين التوراتية والقرآنية: نقرأ في النصّ الأوّل: «ثمّ جبل الرّبُّ الإله آدم من تراب الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة؛ فصار آدم نفساً حيّة»[7]. وجاء في النصّ الثاني: [إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون][8]. ونقرأ في سورة الحجر: [ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون][9]. لكن خلق حوّاء كان من مادّة حيّة؛ لأنّها اقتُطِعَت من جسد آدم، وقد تكون هذه المادّة أنفس من المادّة التي خُلِقَ منها الذكر، فالتراب شُحِنَ في النصوص الدينية بدلالة الشيء التافه والوضيع، حتّى إنّنا نقرأ في النصّ القرآني صلف إبليس وافتخاره على آدم؛ لأنّه خُلِق من مارج من نار، في

[5]- تكوين 1: 18

[6]- تكوين 1: 20-21-22

[7]- تكوين 7: 2

[8]- آل عمران 59: 3

[9]- الحجر 26: 15

حين خُلِق أبو البشر من تراب: [قال ما منعك ألا تسجد وقد أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ][10].

ولم يكن خلق حوّاء، بالنسبة إلى الإله، مثل خلق آدم؛ بل كان أسهل وأيسر، ولم يتطلّب من الإله أن ينفخ فيها (حوّاء) نسمة حياة منه؛ لأنّ هذه النسمة كانت موجودة في آدم من قبل، لقد نشأت الأنثى من عظام الذكر ولحمه، وقد اقتُطِعَت من كيانه، هكذا قال آدم بعد أن خلق الإله من إحدى أضلاعه حوّاء: «هذه الآن عَظْمٌ من عظامي ولحم من لحمي، فهي تدعى امرأة لأنّها من امرئ أُخِذت»[11]. لكنّ الأنثى اتخذت، بعد عملية الخلق، كياناً مستقلاً، ووجوداً خاصّاً. إنّ خلق الأنثى من الذكر يجعلنا نطرح سؤالاً مهمّاً: هل كان آدم في أصل الخلق خُنْثَى، يحمل أعضاء التناسل الذكرية والأنثوية في آنٍ (Androgyne)، فيكون في الأصل كيَاناً مزدوج التكوين، أو هو ذاتٌ ثنائية الخِلقة؟

إنّنا، في هذه الحال، لن نكون إزاء خلقة موحّدة تفرّع عنها، بعد عملية الخلق الأولى (خلق آدم)، مخلوق ثانٍ (خلق حوّاء)، وإنّما إزاء خلق مزدوج التكوين منذ عملية الخلق الأولى، ثمّ انشقّ أحدهما عن الآخر، ليستقلّ بذاته الخاصّة، وإذا ما صحّت هذه الفرضية، فإنّها تؤدّي بنا إلى القول: إنّ خلق آدم وحوّاء تمّ في الوقت نفسه، ولم يكن خلق أحدهما سابقاً للآخر في الزمان، لقد كانَا نفساً واحدة انفلقت إلى نفسين.

يذكر أبراهام تسيترون (Abraham Tsitrone)، في مقال له بعنوان: (**الجنس والزواج في التراث اليهودي**)، أنّ مفسّرين آخرين للمدراش يلجؤون إلى فكرة الكائن الخنثى (Androgyne)، ليفسّروا خلق الزوج البدئي في الوقت نفسه، فقالوا إنّ الله لما خلق آدم أنشأه ذا وجهين (Double face)، ثم شطره ليكوّن منه جسدين، ويذكر في رواية أخرى: أنّ آدم البدايات كان واحداً، لكنّه كان مكوّناً من جهتين، ثم عَمَدَ الإله إلى فصله، لينشئ من إحدى الجهات الرجل، ومن الأخرى المرأة، يقول صاحب المقال: «إنّ موضوع الخُنْثى البدئي، الذي يوجد في الكثير من الأسطوريات، وُظّف، منذ «مأدبة أفلاطون»، في شرح الرغبة الجنسية، باعتبارها توق الذكر والأنثى إلى العودة إلى الوحدة البدئية الضائعة، وإلى الحب باعتباره اتحاد كائنين كانت

[10]- الأعراف 12: 7

[11]- تكوين 23: 2

روحاهما، في ما مضى، ممتزجتين، ثمّ فصلهما الوجود الفردي»[12]؛ لذلك تكون كلّ عملية جنسية، في حقيقتها، سعياً إلى تحقيق التوحّد البدئي الضائع بعد انشطار آدم إلى ذكر وأنثى.

إنّ فكرة كون آدم وحوّاء واحداً متوحّداً أكّدها القرآن بقوّة في أكثر من موضع، جاء في أحدها: [يا أيّها النّاس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء][13]. ولكي نتبيّن، بكلّ وضوح، هذا التوحّد في أصل الخلق، يمكننا النظر في هذه الآية في كتب التفسير لدى القدامى: «... عن ابن إسحاق قال: ألقي على آدم –صلّى الله عليه وسلّم- السّنة، في ما بلغنا عن أهل الكتاب، من أهل التوراة، وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره، ثمّ أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقّه الأيسر، ولَأَمَ مكانه، من ضلعه تلك زوجته حوّاء، فسوّاها امرأةً ليسكن إليها، فلمّا كُشفت عنه السِّنة، وهبّ من نومته، رآها إلى جنبه، فقال في ما يزعمون -والله أعلم-: لحمي ودمي وزوجتي! فسكن إليها»[14].

إنّه لا يخفى على القارئ هذا التماثل، الذي يكاد يكون كليّاً بين نصّ سفر التكوين والنصّ المفسّر للقرآن، فكلا النصّين يذكر هذا الفَلْق/ الانفلاق، الذي حدث في كيان آدم إلى ذكر وأنثى، بعد أن كان يمثّل وحدة غير منقسمة، وبعملية الخلق الثانية تنشطر الوحدة إلى كيانين، ذكرٍ وأنثى استقلّ كلّ منهما بوجوده، فتجلّى بهذا الفلق/ الانفلاق الاختلاف في الخلق البدئي، وصار قائماً، بالفعل، بعدما كان موجوداً بالقوّة. إنّنا نشهد عملية خلق/ فلق عجيبة بولادة حوّاء من آدم (الذكر يلد!)، فالطبيعي والمنطقي أن يكون الخلق/ الفلق بطريقة عكسية؛ أي أن تلد الأنثى رمز الخصوبة والتكاثر، وهذا الإنشاء للأنثى من الذكر لا يُفهَم إلا إذا وُضِع في سياقين، أو في أحدهما على الأقلّ؛ السياق الأوّل: هو سياق العجيب، فالقصص الدّيني ينهض على العجيب المدهش، والخوارق، والمعجزات. أمّا السياق الثاني: فيُفهَم إذا اعتبرنا آدم مخلوقاً خنثوياً في الأصل.

إنّ عملية الخلق الثانية هذه (خلق حوّاء من جسد آدم) لافتة للانتباه، وهي تطرح إشكالاً يتمثّل في السؤال الآتي: لماذا عمد الإله، في النصّين (التوراتي والتفسير الإسلامي)، إلى إيقاع آدم في نوم عميق، قبل أن يخلق حوّاء من جسده؟ أَيُعزا الأمر إلى تجّنب إشعار آدم بالألم بسبب أخذ ضلع من أضلاعه ليخلق حوّاء، أم يرجع الأمر إلى أنّ آدم كان سيرفض أخذ شيء من جسده لو لم تُصبه السّنة؟

[12]- Marcel Bernos, Sexualité et religions, les Editions du C.E.R.F Paris 1988, p 125.

[13]- النساء 1: 4

[14]- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد 3، الجزء 4، ص ص 271- 272

إنّنا نميل إلى الافتراض الأوّل؛ لأنّ النصّين السابقين يؤكّدان شعور آدم بالغربة والوحشة في ذلك الفضاء الذي وضع فيه، وقد سبق أن أشرنا، اعتماداً على النصّ التوراتي، إلى أنّ جميع الكائنات التي خلقها الإله كانت في تواصل (Communication)، كلّ كائن مع شبيهه، إلا آدم، الذي كان دون شبيه، وقد ابتهج آدم لما استيقظ من النوم ووجد كائناً شبيهاً به إلى جانبه: «وعمل [الإله] من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه عظمٌ من عظامي، ولحم من لحمي، فهي تدعى امرأة؛ لأنّها من امرئ أُخذَت»[15]. ونقرأ في تفسير الطبري: «... عن السّدّي قال: أسكنَ آدم الجنّة، فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة، فاستيقظ، فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة. قال: ولمَ خلقتِ؟ قالت: لتسكن إليّ»[16].

تؤكّد النصوص المقدّسة، والنصوص الحوافّ، أنّ انفلاق الخلق الأوّل إلى كيانين كان يرمي إلى خلق الأنس في المخلوق الأصلي، بسبب وقع الوحشة والغربة؛ لذلك نشأ هذا الحنين المتبادل بين الجسدين، وهو حنين يبلغ درجة الاكتمال بالعودة إلى التوحّد من جديد، أو إلى الكيان الأصل، «لهذا، فإنّ الرجل يترك أباه وأمّه، ويلتصق بامرأته، ويصيران جسداً واحداً»[17]. ونقرأ في القرآن: [هو الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وجعل منها زوجها ليسكن إليها][18]. وورد في تفسير هذه الآية [ليسكن إليها] «يعني [.....] ليأوي إليها لقضاء الحاجة ولذّته»[19]، وفي هذا السكن أو السكون التحام وتوحّد بعد انفصال، وهذا التوحّد أو الالتحام جسديّ؛ أي هو يتّم بالتحام جسدين كانا قبل ذلك في حال انفصال تامّ، وفي هذا السكن عودة إلى التوحّد التام؛ أي عودة إلى الوضع في الخلق البدئي.

ويتعرّض أبراهام تسيترون، في مقاله السابق، إلى الآية التوراتية «سأصنع له [آدم] معيناً مشابهاً له»[20]، أو الآية «لم يجد [آدم] لنفسه معيناً مشابهاً له»[21]، فيذكر أنّ المدراش يحدّد الأمر بدقّة، وهو يتعلّق في المشروع الإلهي بالجنس(Le sexe)، لكنّه جنس ليس من النوع الحيواني، بما أنّ آدم نظر في الحيوانات،

---

[15]- تكوين 23: 2

[16]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م3، ج 4، ص 271

[17]- تكوين 24: 2

[18]- الأعراف 189: 7

[19]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م 5، ج 9، ص 172

[20]- تكوين 2: 18

[21]- تكوين 2: 20

فرأى أنّ كلَّ واحد منها له شبيهه، لكنّه لم يرَ لنفسه شبيهاً، فكانت الكائنات الحيّة تتواصل في ما بينها مع أشباهها. أمّا آدم، فكان التواصل منعدماً في عالمه، وبسبب ذلك عمد الربّ الإله إلى خلق شبيه له هو حوّاء. وقد ذهب صاحب المقال إلى أنّ عبارة «مشابهاً له»، الواردة في الآيتين السابقتين، تعني ما يقصد في التصوّر التراثي للعلاقة الجنسية؛ أي الجنس، ويدلّ على التواصل والحوار روحاً وجسداً.

إنّ الفكرة السابقة تؤكّد أنّ أدوات التواصل أو الحوار بين الكائنات (بما في ذلك الإنسان) كانت الجسد، وتحديداً الجنس؛ لذلك يقول أبراهام تسيترون: «إنّ الدواء الحقيقي للوحشة، ولكي نتحوّل من السّفاد (لدى الحيوان) إلى الوحدة/ الجماع (لدى الإنسان) يجب أن يصير الجنس "لغة"، والشريك في العملية الجنسية مُحاوراً، ويجب على الحوار، الذي هو تبادل خطاب، أن يتواصل في الكون الجسدي»[22]. إنّ الجسد لغة في أصل الكون.

ولكيْ نكنه قيمة هذا التوحّد، يمكن أن ندرس مادّة (س. ك. ن) الواردة في النصّ القرآني في العديد من المواضع، وما يمكن أن تحيل عليه من دلالة تشدّ الذكر إلى الأنثى، والأنثى إلى الذكر، وردت مادّة (س. ك. ن) لتحيل على المعاني الآتية:

* معنى الطمأنينة: [إن صلاتك سكن لهم] [التوبة 9: 103] (انظر: تفسير الطبري، م 7، ج 11، ص 22).

* معنى الأمنة والطمأنينة: [ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله] [التوبة 9: 26] (انظر: تفسير الطبري، م6، ج 10، ص 121).

* معنى السكون والهدوء والاستقرار في المسكن: [وجعل الليل سَكَناً] [الأنعام 6: 96]. (انظر: تفسير الطبري، م5، ج 7، ص 331 -332).

* معنى الراحة من التّعب، والانصراف عن الحركة والعناء من أجل المعاش: [هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه] [يونس 10: 76] (انظر: تفسير الطبري، م7، ج 11، ص 163).

[22]- Sexualité et religions p 126.

* الهدوء وراحة الأبدان من تعب التصّرف والتقلّب نهاراً: [جعلنا الليل ليسكنوا فيه] [النمل 27: 86]. (انظر: تفسير الطبري، م 11، ج 20، ص 20).

إنّ مختلف الاستعمالات الواردة في الآيات السابقة تؤكّد الانسجام التّام، الذي يمكن أن يحصل بين الذكر والأنثى، فكلّ واحد منهما يمثّل، بالنسبة إلى الآخر، الرّاحة، والأمن، والطمأنينة، والهدوء، وهو يمثّل مسكناً أو سَكَناً، بما يحمله هذا اللفظ من دلالة على الاطمئنان، والارتياح، والأمن. جاء في (**لسان العرب**): «السكن: المرأة لأنّها يُسكن إليها... السّكَنُ كلّ ما سكَنتَ إليه، واطمأننت به من أهل وغيره...»[23]، وهذه الحالات من الأمن والراحة تتوافر لدى الذكر والأنثى عندما يسكن الواحد منهما إلى الآخر، ويتوحّدان في الجسد، ويكون الجسد بينهما أداة التواصل والتفاعل والمتعة. وفي هذه الحال تنتفي الحواجز، والحدود، والفوارق، بين الذكر والأنثى، ويقضى على التمييز بين الجنسين؛ إذ لا فاصل يفصل بينهما.

نقرأ في القرآن ما يمكن أن يوضّح هذا المعنى بكيفية أجلى، جاء في [الآية 187، من سورة البقرة] ما يأتي: [أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ]. إنّ الذكر هنا لباس للأنثى، وهي لباس له، يعيشان حياة الطبيعة الأولى بعد أن نزعا عنهما ما كان يشدّهما إلى الثقافة، وقد فسّر الطبري الآية السابقة بما يفيد انعدام الحواجز والفواصل بين الذكر والأنثى ساعة الجماع، وذكر أنّ المفسّرين ذهبوا في الشرح مذهبين: «أحدهما أن يكون كلّ واحد منهما جُعل لصاحبه لباساً لتجرّدهما عند النوم، واجتماعهما في ثوب واحد، وانضمام جسد كلّ منهما لصاحبه بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه، فقيل لكلّ واحد منهما هو لباس لصاحبه [....]، والوجه الآخر أن يكون جُعل كلّ واحد منهما لصاحبه لباساً؛ لأنّه سَكَنٌ له، كما قال جلّ ثناؤه: [جعل لكم الليل لباساً] [الفرقان 25: 48]. يعني بذلك سكناً تسكنون فيه، وكذلك زوجة الرجل سَكَنهُ يسكن إليها، كما قال تعالى ذكره: [وجعل منها زوجها ليسكن إليها] [الأعراف 7: 189]. فيكون كلّ واحد منهما لباساً لصاحبه بمعنى سُكُونه إليه»[24].

وتحمل الآية الأخيرة إشارة مهمّة تبرز منزلة خلق المرأة بالنسبة إلى الرجل، فهذه الآية تؤكّد الغاية من خلق المرأة من جسد الرجل، أو خلق الأنثى من الذكر «ليسكن إليها» فالثاني تابع للأولى في فعل السّكن/ السكون بمختلف دلالاته، فمن الذكر خلقت الأنثى ليسكن إليها، وكان المنطق يقتضي أن تسير الأحداث سيراً

[23]- انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادّة: س. ك. ن.

[24]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م2، ج 2، ص ص 199- 200

عكسيّاً، فتتحوّل العبارة من «وجعل منها زوجها ليسكن إليها» إلى «وجعل منها زوجها لتسكن إليه»، بما أنّ لفظ «زوج» يحيل في العربيّة على المذكّر مثلما يحيل على المؤنّث. إنّ هذا المقطع من شأنه أن يبدّد فكرة تفضيل الذكر على الأنثى، بما أنّ العبارة القرآنية تدلّ على معنى سكون الرجل إلى المرأة، على الرغم من أنّها خُلقت منه؛ بل قد يفهم من ذلك ما ينقض هذا التفضيل، ويوجّهه لفائدة الأنثى، بما أن حوّاء وفّرت لآدم - حسب ما جاء في النصّين التوراتي والقرآني– من الأنس، والسكينة، والأمن، ما كان مفقوداً لديه قبل أن تُخلَق، فكانت بذلك صاحبة الفضل.

لقد كان عالم آدم، قبل خلق حوّاء، فضاءً موحشاً خالياً من الأنس، والمتعة، والطمأنينة، ولمّا خُلقَت عُمِّر الكون بهذه العناصر، ودبّت فيه الحركة، فطاب العيش لدى آدم، واكتمل كيانه، وقد كان قبل ذلك فراغاً/ يباباً موحشاً، ولا نظنُّ أنّ الكون اكتسب دلالة ومعنى قبل أن تُخلق حوّاء. إنّنا نُلاحظ أنّ المفسرين والمؤوّلين للنصّ الديني اهتمّوا بأشياء في هذا النصّ، وأهملوا أشياء أخرى فيه كان بالإمكان أن تعدّل من الآراء والأطروحات لو وقع الالتفات إليها، أو الاهتمام بها، أثناء تأويل النصّ الديني، ومن أهم المسائل ما ذُكر في التوراة، ثمّ في القرآن، من أفعال نهضت بها حوّاء إزاء آدم، فالنّصان لم يبرزا حاجة الأنثى إلى الذكر؛ أي حوّاء إلى آدم؛ بل كشفا -على العكس من ذلك– حاجة الذكر إلى الأنثى، على الرغم من أنّ النصّين: التوراتي، والمفسّر للقرآن، يؤكّدان أنّ آدم سابق حوّاء في الخلق، وأنّ الأنثى خُلقت من جسد الذكر، ومن المنطقيّ، تبعاً لذلك، أن يوفّر آدم لحوّاء الأنس، والأمن، والطمأنينة، وليس العكس، وأن يكون آدم الواهب، وحوّاء الموهوبة، وستتأكّد لنا تبعية الذكر للأنثى/ آدم لحوّاء، عند معالجة المحور التالي.

3– في البدء كان الجسد العاري وكان التواصل يتمّ عن طريق الجسد أو الكون من السكون إلى الحركة:

نجد في سفر التكوين، وفي القرآن، ما يشير إلى أنّ آدم وحوّاء كانا يعيشان في زمن البدايات حياة الفطرة/ الطبيعة، ولم يعرفا كساء يستران به جسديهما، ولم يكن هذا الحجب مطلوباً منهما؛ لأنّ الجسد العاري لم يكن، في الزمن البدئي، يمثّل عورة، أو قبحاً، أو نقيصة؛ لأنّ كلّ شيء كان يحيا حياة الطبيعة خارج فضاء الثقافة: «كان آدم وامرأته عُرْيانين، ولم يعترهما الخجل»[25]. كان الجسد يمثّل -على العكس من ذلك- الجمال والروعة، وتذكر النصوص المقدّسة، توراةً وقرآناً، أنّ الله تفنّن في خلق الإنسان، فأخرجه على غير منوال،

[25]- تكوين 2: 25

فكانت صورته أجمل ما في الكون، بما أنّه خُلِق شبيهاً بالإله، وكان الإله واعياً بهذا الجمال: «خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم»[26]. ونقرأ في القرآن [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم][27]. ويُقصد بهذه الآية أنّ الإنسان خُلق في أحسن صورة، أو في أحسن خلق[28].

كان الجسد، إذاً، يمثّل قمّة الخلق في الجمال، وسيكون لهذا أثره في تحريك الأحداث وتسريعها، والتحوّل بها من فضاء إلى فضاء ثانٍ، في النصّين التوراتي والقرآني، وتحويل بؤرة الاهتمام من جسد آدم إلى جسد حوّاء، ومن الجسد الجميل العاري إلى الجسد المحجوب الساتر للإثم. إنّ مثل هذه العناصر من شأنها أن تحرّك الأحداث، وتسير بها نحو اشتهاء الجسد؛ إذ كلّ العناصر المتوافرة في هذا الفضاء تدّل على الاحتفاء بالجسد، والاحتفال به؛ خلق الإنسان في أحسن صورة، تشظّي الجسد إلى ذكر وأنثى، إحضار الربّ حوّاء إلى آدم بعد خلقها «وعمل [الربّ] من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم»[29]، وكان الإله، قبل ذلك، قد خلق الكون في أحسن تقويم، ونظر في خلقه، بعد أن أتمّ كلّ شيء في اليوم السادس، «ورأى الله ما خلقه فاستحسنه جدّاً، ثمّ جاء مساءٌ أعْقَبَه صباحٌ، فكان اليوم السادس»[30]، ونقرأ في [سورة السجدة 32 : 6 و7] [ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه».

كان الكون، طوال الأصحاح الأوّل من سفر التكوين، أخرَسَ موحشاً قبل خلق المرأة؛ لذلك كان خلقُها خلقاً للأنس والمؤانسة، وقد كانت الأنثى أهمّ عنصر فاعل في تحريك الأحداث في الكون البدئي، وفي الكون القصصي، سواء كانت المرأة أم الحيّة: هما اللّتان حوّلتا الكون الأوّل من صامت ساكن إلى ناطق متحرّك، والنّص القصصي من كون سرديّ تُروى فيه الأحداث بضمير الغائب (هو) إلى كون مسرحي/ مشهدي تراجيدي تمثّل فيه الأدوار، ويترك للشخصيات فرصة التخاطب مباشرة (الحيّة وحوّاء، ثمّ الله والحيّة، وآدم وحوّاء، في سفر التكوين، الله والشيطان، وآدم وحوّاء في القرآن...)، لكنّ الخطاب الذي كان في الأصل مشهديّاً (حوار مباشر بين أطراف) لا نقرأه في النصّين المقدّسين إلا عن طريق ما يُسمّى «الخطاب المنقول» (Discours transposé ou Style indirect)؛ لأنّ الراوي العليم بكلّ شيء يظلّ حاضراً في تشكيل الكلام

[26]- تكوين 1: 27

[27]- التين 95: 4

[28]- انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م15، ج 30، ص 267

[29]- تكوين 2: 22

[30]- تكوين 1: 31

المنطوق، وتحويله من خطاب حواريّ مشهدي إلى خطاب حواريّ مشهدي منقول، وبهذا التحويل، يُضفى على النصّ القصصي جانب من جوانب إغنائه، ويخرَجُ به من رتابة الخطاب الموحّد سرداً كان أو حواراً. ويخرج الكون من جهة أخرى، عن طريق انخراط حوّاء في الخطاب، من كون صامتٍ ساكن يسوده الحوار الباطني المسرود (الله يكلّم نفسه، والراوي العليم ينقل كلامه) إلى كونٍ متكلّم متحرّك تتفاعل فيه الكائنات بطرق مختلفة؛ لذلك يقتضي كلّ تغيير يطرأ على نظام الكون تغييراً في نظام القصّ.

4- المنع والخرق:

لا بدّ من الإشارة، هنا، إلى علاقة الفضاء الذي تدور فيه الأحداث بالاحتفال بالجسد، فقد توافر في هذا الفضاء (وهو الجنّة في النصّين التوراتي والقرآني) من عناصر الجمال ما يشدّ آدم وحوّاء إلى دنيا الجسد، ويجعل عالم الحسّ مشتهى مرغوباً فيه، وقد عبّر عن هذا الاشتهاء مقطعان توراتيان على الأقلّ، يقول أوّلهما: «وأقام الربّ الإله جنّة في شرق عدنٍ ووضع فيها آدم الذي جَبلَهُ. واستنبت الربّ الإله من الأرض كلّ شجرة بهية للنظر ولذيذة للأكل»[31]. ونقرأ، في المقطع الثاني، ما يأتي: «وعندما شاهدت المرأة أنّ الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها وأكلت، ثمّ أعطت زوجها أيضاً فأكل معها»[32]. ولا يخفى ما في هذين المقطعين من تركيز على دعوة الجسد إلى التلذّذ والمتعة بثمر الشجرة، فالثّمر مُغرٍ للذوق وللبصر، حتّى إنّ حوّاء لم تستطع السيطرة على الشهوة التي كانت شديدة التيقّظ فيها، لقد كانت حوّاء على علم بالنهي الإلهي عن الأكل من هذه الشجرة، فقد يكون آدم أعلمها بالحظر؛ إذ لم تكن هي حاضرة عندما نهى الربّ الإله، في النصّ التوراتي، آدم عن الأكل، لكن إغراء الحسّ، وشهوة الأكل، كانا أشدّ تأثيراً فيها من فعل الحظر.

والمُلاحظ، هنا، أنّ العين/ البصر كانت الأداة الأساسية في إدراك جمال الكون/ الجمال والتمتّع به، فمشاهدة الشجرة المثمرة ولّدت في حوّاء الإثارة، والشهوة، والرغبة في الأكل، وهي الأداة نفسها التي أدرك بها الإله في (سفر التكوين) جمال خلقه، وقد تكرّرت عبارة «ورأى الله ذلك فاستحسنه» خمس مرّات على الأقلّ في الإصحاح الأوّل من (سفر التكوين)؛ لذلك يكون فعل الخرق أمراً محتوماً؛ إذ كلّ منعٍ (Interdiction) يقتضي ضرورة في علم القصّ (La narratologie)، حسب نظرية بروب (V .Propp)،

[31]- تكوين 2: 8-9

[32]- تكوين 3: 6

خرقاً أو تجاوزاً (Transgression)؛ لذلك يكون حظر الأكل من الشجرة مقدّراً له من الرّاوي مسبّقاً أن يُخرق، والخرق لئن كان خارجاً عن النظام الكوني، الذي أراد الإله تثبيته للقضاء على الفوضى (Le chaos)، فانّه ليس كذلك في الكون القصصي؛ لأنّ الخرق من صميم النظام في علم القصّ، يستعمله ربّ القصّ/ الراوي لكي يحقّق للكون القصصي غايته، وقد يكون الرّاوي، هنا (وهو العليم بكل شيء) واقعاً تحت وطأتين؛ وطأة نظام الكون، ووطأة نظام القصّ. لقد تحوّلت الأنثى في الكون من الموجود القائم على المنع والحرام إلى المنشود القائم على الإباحة والحلال، وما نهضت به حواء من خرق لئن كان يتناقض والنهي الإلهي، فإنّه امتثال لأمر إلهي سابق (un ordre) يقتضي التناسل والتكاثر: «وباركهم الله قائلاً: أثمروا وتكاثروا واملؤوا الأرض وأخضعوها» (تكوين 1: 28)، ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا تمّ خرق النهي، فالخرق، إذاً، فعل محتوم لكي تتحقّق الإرادة الإلهية في تعمير الكون بالتناسل، والتكاثر، وملء الأرض، وإخضاعها، والتمتع بنعم الله، والتسلّط «على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كلّ حيوان يتحرّك على الأرض» (تكوين1: 28). وقد أكّد القرآن ضرورة انتفاع الإنسان بما سخره الله له في السماوات، والأرض، والبحر: [ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة] [لقمان 31: 21].

إن الكون بأسره مائدة أطعمة «لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر» (تكوين3: 6)، دعي إليها الإنسان، وكان للأنثى فضل المبادرة للأكل منها، فأكلت وأطعمت غيرها، وبفعل الأكل هذا ينتهي فعل خلق الآلهة في عالم الغيب، ليبدأ فعل خلق الإنسان على وجه الأرض، ويكف الكائن عن الاقتيات من مائدة الآلهة في الجنّة، ليقتات بالمشقّة وعرق الجبين في الأرض، ونتحوّل من الاهتمام بما يحدث في الجنّة إلى الاعتناء بما يحدث على وجه الأرض.

وقد يكون من المفيد، هنا، أن نتكلّم على أطروحة يون د. لوفنسن

(Jon. D . Levenson) حول «الخلق واستمرارية الشّر» (La création et la Persistance du Mal). يذكر بول ريكور (Paul Ricœur) أنّ هذا الباحث اختار موضوع السيطرة أو التحكّم (La maîtrise)، عوض موضوع النظام (L'ordre)، خيطًا موجّهاً في دراساته، وبناءً على ذلك، فإنّ مقاومة النظام لا تعزا، منذ البداية، إلى فكرة عصيان عرضيّ راجع في النهاية إلى سوء نيّة الإنسان المتّعلق بالخطيئة، ذلك أنّ هذه المقاومة المُعبّر عنها في العنوان بـ «استمرارية الشرّ» تبدو على، العكس من ذلك،

ملازمة لعملية خلق هي في جوهرها هشّة وقابلة للعطب[33]؛ لذلك تمّ تجاوز الأمر الإلهي بكلّ يسرٍ، فأُكلَت الثمرة المحرّمة، وما يمكن أن نتساءل عنه هنا: ماذا أكلت حوّاء وآدم؟ ما نوع الثمر الذي أكلاه؟ وهل كانت الثمرة على قدر كبير من الفتنة والإغراء حتّى يقع تجاوز الحظر الإلهي؟

تذكر التوراة أنّ الشجرة المعنية بالنهي هي شجرة «معرفة الخير والشرّ»، وكان موقعها وسط الجنّة. أمّا القرآن، فلا يذكر لها اسماً ولا موقعاً، ويكتفي بالإشارة إليها بالقول: [لا تقربا هذه الشجرة][34]. وقد علّل الإله الحظر بحلول الموت بالآكل من الثمر: «إيّاك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ؛ لأنك حين تأكل منها حتْماً تموت»[35]. لكنّ الحيّة تقدّم تعليلاً ثانياً مفاده أنّ الأكل من الشجرة المحظورة يُكسب الآكل القدرة على التمييز بين الخير والشرّ، فتنهض الحيّة بذلك بدور الظهير (l'adjuvant) بالنسبة إلى آدم وحوّاء، وبدور المعرقل بالنسبة إلى الإله. ونقرأ في القرآن تعليلاً ثالثاً مختلفاً عن التعليلين السابقين، يتمثّل في أنّ الآكل من الشجرة يكون من الظالمين[36]، غير أنّ الشيطان، الذي ينهض بدور الحيّة في النصّ التوراتي، يقدّم تعليلاً رابعاً يختلف عن جميع ضروب التعليل السابقة: [فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكيْن أو تكونا من الخالدين][37]. إنّ الأكل من الشجرة المحرّمة ينشأ عنه أحد أمرين: إمّا تحوّل آدم وحوّاء من منزلة الإنسان إلى منزلة الملائكة، وإمّا أن يصيرا كائنين خالدين غير فانيين؛ لذلك نجد الشيطان ينعت الشجرة المحظورة بـ «شجرة الخلد»، قال: [يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى][38]؟

إنّ الروايات في هذه القصّة تؤكّد ضروباً من الاختلاف:

- الاختلاف في الأطراف المتصارعة:

* يسعى كلّ من الإله والحيّة في النصّ التوراتي، والإله والشيطان في النص القرآني، إلى كسب آدم وحوّاء إلى صفّه: الله ينهى عن الأكل من الشجرة، والحيّة (الشيطان) تغري بالأكل منها.

---

[33]- André la Coque/Paul Ricœur, Penser la bible. Ed. Du Seuil 1998, p 92.

[34]- انظر: البقرة 2: 35، والأعراف 7: 19

[35]- تكوين 2: 17

[36]- انظر: البقرة 2: 35، والأعراف 7: 19

[37]- الأعراف 7: 20

[38]- طه 20: 120

●الاختلاف في تعليل الحظر:

* الأكل من الشجرة يسبّب الموت في نظر الإله، ومعرفة الخير والشر في منظور الحيّة، حسب الرواية التوراتية، وهو ينشئ الظلم في منظور الإله، ويكسب الخلود في منظور الشيطان في النصّ القرآني.

إنّ هشاشة النظام الكوني، وإمكان خرقه، محمولان في بنية الكون الأصلية، وفي الشخصيات المحرّكة للأحداث؛ فالعناصر المكوّنة لهذه البنية فيها من التباين/ التنافر ما يجعلها كلّاً مُحَطّماً منذ تأسيسه، فالإله مجهول، والإنسان رُميَ به في تراجيديا الشرّ والموت[39]، والكائنات المتحرّكة في الفضاء البدئي عبارة عن قوى متضادّة، وإن بدت في الظاهر متآلفة:

الحيّة ≠ الإله والإنسان (آدم+حوّاء).

الإنسان (آدم +حوّاء) ≠ الإله.

إنّ دراسة الشخصيات/ الفواعل مفيدة، هنا، في إبراز كيفيات التفاعل في ما بينها، فالحيّة (في سفر التكوين)، والشيطان (في القرآن)، يمثّلان البطل الضّديد (L'antagoniste)، والقوّة المعرقلة للآلهة، وهما ينتصبان صِنْوَيْنِ معادلين لها، فالحيّة يُنظر إليها، في الثقافات الشرقية القديمة، على أنّها كائن معبود، وهي كائن مذكّر، ورمز للعضو الذكوري[40]، وهي، علاوة على ذلك، رمز التجدّد، والتبدُّل، والانبعاث، عن طريق تبديل جلدها (ثوبها/ شكلها الخارجي)، وهي لا تختلف في ذلك عن آلهة الشرق القديمة في موتها وانبعاثها من جديد بتبدّل الفصول، وتجدّدها مثل الإله مردوخ، والإله دموزي، والإله دامو[41]. أمّا الشيطان/ إبليس في التصوّر الإسلامي، فكانت له منزلة رفيعة قبل رفض السجود لآدم، كان متسلّطاً ورئيس الملائكة، ثمّ صار، بعد العصيان، كائناً ملعوناً متمرّداً على الذات الإلهية.

ومن اللاّفت في القصّة التوراتية أنّ الحيّة تُنْعَتُ ببعض صفات الآلهة، كالمعرفة والمكر، فهي تعرف أسرار الآلهة، وإلا كيف عرفت أنّ الإله منع آدم وحوّاء من الأكل من الشجرة المحرّمة؟ وكيف عرفت أنّ الأكل المحرّم يُكسب الآكل التمييز بين الخير والشرّ؟ أمّا فيما يتعلّق بالمكر، فإنّنا نقرأ في (سفر التكوين) أنّ

[39]- Penser la bible, p120.

[40]- لا تستبعد بعض الدراسات أن تكون الحيّة (Le serpent) قد مارست الجنس مع حوّاء في غياب آدم؛ لذلك نعتت حوّاء بالخيانة (Sexualité et religions p 128-129).

[41]- انظر: حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت، مطبعة دار السلام، بغداد، 1978م، من ص 68 إلى 72

الحيّة كانت «أمكر وحوش البرّية التي صنعها الرّبّ الإله»[42]، ويوصف الإله في القرآن بالماكر؛ بل [بخير الماكرين][43].

ونقرأ في (**الجامع المحيط في الكتاب المقدّس والشرق القديم**) أنّ الاكتشافات الأركيولوجية تدلّ على انتشار عبادة الحيّة في الشرق القديم، وعلى احتلال هذا الحيوان مكانةً مهمةً في الديانات الكنعانية، وقد اعتبرت الحيّة في الشرق القديم حيواناً موصولاً بالألوهة[44]، وقد رسم الطبري، في تفسيره، صورة للحيّة تجعلها كائناً عجيباً مفارقاً تتّصف بحسن غير عاديّ، يقول: «وكانت للحيّة أربع قوائم كأنّها بختية من أحسن دابّة خلقها الله»[45]. وجاء في (**لسان العرب**) لابن منظور: أنّ الحيّة من الهوامّ، واللفظ يستعمل للمذكر والمؤنث، ويضرب بالحيّة أمثال كثيرة في صفات عدّة فيُقال: «هو أبصر من حيّة» للدلالة على حدّة البصر، ويُقال «فلان حيّة الوادي»، و«حيّة الأرض» للدّلالة على شدّة الشكيمة وحمى الحوزة، ويُقال: «رأسه رأس حيّة» إذا كان متوقّداً شهماً عاقلاً، وفلان «حيّة ذكر»؛ أي شجاع شديد، ويُقال للمرأة أو الرجل إذا طال عمرهما: «ما هو إلاّ حيّة» و«ما هي إلاّ حيّة» وذلك لطول عمر الحيّة، ويُقال: «فلان حيّة الوادي، وحيّة الأرض، وحيّة الحماط» إذا كان نهاية في الدهاء، والخبث، والعقل[46].

ومن المفيد أن نذكر، كذلك، أنّ التنافر في البنية الأصلية في الكون، وفي نظام القصّ، لا يتجلّى بين الكائنات/ الشخصيات المتضادّة فحسب، وإنّما يمكن أن نتبيّنه حتى داخل الكائن الواحد، فتكوين آدم، وهو يمثّل قمّة الإبداع في الخلق، يقوم على عناصر متنافرة، فمن جهة، هناك الإنشاء من الطين/ التراب، ومن جهة أخرى، هناك نفخ الروح الإلهي فيه، وقد أكّد النصّان المقدّسان هذه البنية القائمة على التنافر في كيان آدم.

لقد تمرّد المخلوق على خالقه، وانحاز إلى صفّ العدّو/المعرقل في كلا النصّين، وتكون النتيجة الأولى للأكل: اكتشاف آدم وحوّاء عراء الجسد في النصّ التوراتي، وسوءاتهما في النصّ القرآني، فيسرعان إلى ستر العراء بورق التين، إنّ هذه النتيجة الأولى مهمّة؛ إذ يمكن أن توجّهنا نحو معرفة الشجرة المحرّمة؛

---

[42]- تكوين 3: 1

[43]- آل عمران 3: 54

[44]- انظر: الجامع المحيط في الكتاب المقدّس والشرق القديم، جمعية الكتاب المقدّس والمكتبة البولسية، ط1، 2003م، ص 489

[45]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م1، ج 2، ص 308. والبختية والإبل الخراسانية.

[46]- انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادّتي (حوا) و(حيا).

هل هي شجرة معرفة الخير والشرّ مثلما جاء في النصّ التوراتي؟ هل هي شجرة الخلد مثلما ورد في النصّ القرآني؟ أو هل هي شجرة الجسد والجنس مثلما يمكن أن يدّل على ذلك سياق النصّ التوراتي والقرآني؟

إنّ السياق النصّي التوراتي لا يساعد القارئ على الذهاب إلى القول: إنّ الشجرة المحرّمة هي «شجرة معرفة الخير والشرّ»، فلو كانت كذلك لنتج عن الأكل من ثمرها الموت، وقد سبق أن ذكرنا أنّ الإله علّل الحظر بالنتيجة، التي تنشأ عن هذا الأكل، وهي الموت الحتميّ للآكل، لكنّ آدم وحوّاء أكلا من الثمر المحرّم دون أن يصيبهما الموت، وكانت النتيجة الحتمية أن انفتحت أعينهما عوض انغلاقها، وكان الانفتاح مصوّباً نحو الجسد العاري، لكنّ مشهد الجسد العاري، على الرغم ممّا حواه من جمال، ولّد الشعور بالخجل في النصّين القرآني والتوراتي، وقد عبّر النصّان عن هذا الخجل بسعي زوج الجنّة إلى ستر العراء الجسدي بورق التّين، لكن لماذا هذا الخجل من العراء بعد الأكل المحرّم، وكان آدم وحوّاء قبله عاريين، لكنّهما لم يكونا يشعران بالخجل؟[47]، لماذا تمّ ستر الجسد الجميل بعد أن تفنّن الإله في خلقه فأخرجه في أحسن صورة؟

ظهر الشعور بالخجل بعد الأكل من الثمرة المحرّمة، وكان أوّل ردّ فعل صادر عن زوج الجنّة أن يسدلَ حجابٌ من ورق التّين على الجسد في النصّين التوراتي والقرآني، وإذا كان الجسد العاري دون تخصيص، في النصّ الأوّل، جالباً للخجل؛ لذلك وجب ستره، فإنّ النصّ الثاني (القرآن) يركّز على نقطة معيّنة في الجسد العاري سمّاها «سوأة»، [فلّما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة...]،[48] وتفيد لفظة «السوأة» في هذه الآية معنى العورة[49]. وقد جاء في (**لسان العرب**)، في تفسير هذه الآية، ما يأتي: «... السوأة: العورة والفاحشة، والسوأة: الفَرْجُ...السّوأة: فَرْجُ الرجل والمرأة...، قال ابن الأثير: "السوأة في الأصل الفَرْجُ، ثم نُقِلَ إلى كلّ ما يُستحيا منه من قول وفعل...»[50].

وما يُلاحَظ في هذين التفسيرين أنّ الخجل كان ناشئاً عن عراء جزء معيّن من الجسد، وليس كامل الجسد، وهذا الجزء المخصوص هو بؤرة الجنس (Le sexe) لدى الذكر والأنثى؛ لذلك عمل كلّ من آدم وحوّاء على ستر هذا الجزء من الجسد. لكن لماذا بدا لآدم وحوّاء هذا الجزء دون سواه من سائر أعضاء الجسد؟ ولماذا عمدا إلى ستره دون أعضاء الجسد بورق التّين؟ يبدو أنّ لهذا الأمر علاقة بالثمرة المحرّمة،

---

[47]- انظر: تكوين 2: 25

[48]- الأعراف 7: 22

[49]- انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م 5، ج 8، ص 165

[50]- انظر: لسان العرب، مادّة: س.و.أ.

فالشجرة، التي نُهيَ آدم وحوّاء عن الأكل منها، لم تكن شجرة حقيقية؛ بل كانت رمْزاً يحيل على الأكل من «مائدة الجسد»؛ أي على ممارسة الجنس، وقد أكّد النصّان التوراتي والقرآني، على لسان الحيّة في الأوّل، والشيطان في النصّ الثاني، أنّ الأكل من هذه الشجرة يُكسبُ الآكل الخُلُودَ، وعدمَ الفناء، وبالفعل، لم يمت زوج الجنّة (وقد هدّدهما الإله التوراتي بذلك إن هما أكلا منها)؛ بل تواصل حبل النسل، فحقّقت الإنسانية الخلود عن طريق ممارسة الجنس والتكاثر، والمتأمّل في النصّ المقدّس التوراتي يتبيّن أنّ عقوبة ممارسة الجنس المحرّم هي الموت الحتمي[51]. وتذكر أخبار في التراث الإسلامي أنّ الموت رجماً كان عقوبة الزاني والزانية في بداية ظهور الإسلام، وقتل النفس بهذه الطريقة يُعدُّ ظُلماً لها؛ ولذلك نُعت من يأكل من الشجرة المحرّمة بكونه من الظالمين[52].

لا بدّ من التمييز، هنا، بين مرحلتين: مرحلة عراء الجسد قبل خرق المحظور (الأكل من الثمرة المحرّمة)، ومرحلة عراء الجسد بعد هذا الخرق، وقد ذكر النصّ التوراتي أنّ آدم وحوّاء كانا عريانين في المرحلة الأولى، لكنّهما لم يشعرا بالخجل. أمّا في المرحلة الثانية، فإنّ الخجل اعتراهما؛ لذلك استترا بورق التّين في كلا النصّين التوراتي والقرآني. ويمكن أن ندعم ما ذهبنا إليه، في علاقة الثمرة المحرمّة بالجنس، بما جاء في مقال (**الجنس والزواج في التراث اليهودي**)، يقول صاحبه: «إنّ أغلب المفسّرين في القرون الوسطى يُترجمون بطريقة مختلفة في الظاهر» «كان آدم وامرأته عريانين، ولم يعترهما الخجل» (تكوين 2: 25) بـ«كان يعشق كلّ واحد منهما الآخر دون أن يعتريهما الخجل». أوّلاً: لأنّ هذه الآية شبيهة بالآية التي تتحدّث عن الرجل والمرأة، وقد صَارا جسداً واحداً ساعة التوحّد الزوجي، وثانياً: لأنّ «العراء»، في لغة أسفار «العهد القديم»، مُرادف لكلمة «الجنس» [Le sexe]، الجنس الآثم، كما هو متحدّث عنه في المقطع الذي يروي خطيئة حام عندما شاهد عُرْي أبيه[53][...]. إنّ الجنس «العراء» دون حياء «المذكور في سفر التكوين 2: 25، قد يكون، على العكس ممّا تقدّم، العشق البدئي، كما كان الله يريده، وهو حبّ لا تُوجد فيه أيّ فكرة للزوج [Couple]، ولا للخطيئة»[54]. ويضيف المؤلّف أنّ مدراشا يدعم هذه القراءة عندما يُترجم «لم يعترهما الخجل» بـ «لم ينتظرا»؛ أي أنّ آدم وحوّاء لم ينتظرا الساعة السادسة مساء في كلّ صفاء؛ أي أنّهما

[51]- انظر: تثنية 22: 22

[52]- انظر: الأعراف 7: 19

[53]- انظر: تكوين 9: من 20 إلى 25

[54]- Sexualité et religions p 126.

لم ينتظرا ليلة الجمعة[55]، وهي الوقت الذي يكون مناسباً أكثر للعلاقات الجنسية بين الأزواج؛ لأنّه يضمّ بركتين: بركة الخصوبة (تكوين1: 28)، وبركة السبت (تكوين2: 3)[56]. ثمّ يقول المؤلّف نفسه: «إن حبّ ما قبل الخطيئة هو، حسب المدراشات، حبّ طاهر، بالمعنى الدّيني للكلمة، وهو حبّ أبدي»[57].

إنّ ما جاء في المدراش يؤكّد ما جاء على لسان الحيّة في النصّ التوراتي، وعلى لسان الشيطان في النصّ القرآني، من أنّ الأكل من الثمرة المحرّمة (أي ممارسة الجنس) يُكسبُ الآكل صفة الخلود، ويقضي على الموت، لكنّه، مع ذلك، لا ينقض كلام الله في التوراة، وفي القرآن، فالجنس المحرّم يؤدّي في الكتاب الأوّل إلى الموت (حكم الزنى)، ويؤدّي في الكتاب الثاني إلى الظلم، وقتل النفس (حكم الزنى الرجم في بداية الدعوة الإسلامية). وهو ظلم؛ لأنه يمثّل تعدّياً على عرض الآخرين، وهو أشدّ الظلم مرارة بالنسبة إلى المجتمعات التي تركّز ثقافتها الأخلاقية على قيمة العِرْض؛ لذلك لن تبرز الحيّة ولا الشيطان مدبّرين مكيدة لآدم وحوّاء؛ إذ هما بصّراهما بما لم يكونا يُبصِرانه، وقد لا يكونان، كذلك، ضدّ النهي الإلهي؛ إذ قد يكون الإله هو الذي سلّطهما على آدم وحوّاء لِيُجرّبا مدى طاعتهما لإلههما. لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كان العقاب؟ هل العقاب مجرّد مقطع سردي اقتضاه الحكي، بما أنّ كلّ خرق في القصّ يتبعه، ضرورةً، عقاب؟

5- العقاب:

ينشأ العقاب ردَّ فعل على خرق أمر، أو نهيٍ سبق أن ذكره القصّ، وهو موجّه إلى فرد أو أكثر، والعقاب، في النصّين التوراتي والقرآني، نشأ عن خرق نهي عن الأكل من شجرة مخصوصة في الجنّة، وهو نهيٌ صادر عن ذات إلهية متعالية، وقد لحق العقاب بالأطراف الآتية:

في سفر التكوين:
- آدم
- حوّاء
- الحيّة

[55]- تذكر الأكادا (L'Aggada) أنّ آدم وحوّاء خُلِقا يوم الجمعة في منتصف النهار. (انظر: المرجع السابق، ص 126، هامش رقم 31).

[56]- انظر: المرجع السابق، ص 126، هامش رقم 31

[57]- انظر: المرجع السابق، ص 127

- آدم
- حوّاء
- الشيطان

في القرآن

- آدم
- حوّاء
- الحيّة
- الشيطان

في تفسير الطبري (سورة البقرة 2: 36) م 1،ج 1، ص307- ص 311.

ما يُلاحظ، هنا، هو التشابه في ذكر النصوص الدينية للأطراف التي خرقت المحظور، فسُلّط عليها العقاب، لكن هذا التشابه يحتوي اختلافاً؛ فالنصّ القرآني عوّض الحيّة التوراتية بالشيطان[58]. أمّا تفسير الطبري، فقد حاول أن يُوفّق بين الروايتين التوراتية والقرآنية، عندما ذكر الحيّة والشيطان، فأضاف ما ذكره القرآن إلى ما ورد في السفر التوراتي، وقد يكون الاختلاف، هنا، ناتجاً عن اختلاف في اللغة، فالحيّة تحيل على الشيطان، وهي مرادف له[59]، أو هي تتماهى معه في الدور الذي نهضت به لخرق المحظور. وإذا سكت القرآن عن دور الحيّة في الإيقاع بالإنسان ليخرق النهي، وهو سكوت منطقي؛ لأنّ القرآن لم يذكر هذا الكائن، فإنّ الطبري (أو المرويات المضمّنة في تفسيره بصفة أدقّ) حمّل الحيّة دوراً يختلف عن ذلك الذي تحمّلته في (سفر التكوين)، وتمثّل في جعلها نفسها مركوباً لإبليس، ودخولها به إلى الجنّة مخفيّاً في جوفها، لِيُغوي آدم

[58]- نلاحظ أنّ القصّ في القرآن يعمد إلى عملية الاستبدال، فسفر التكوين لا يذكر الشيطان، وإنّما يتحدّث عن آدم وحوّاء والحيّة، لكن القرآن يستبدل بالحيّة إبليس/ الشيطان، غير أنّ الاستبدال يظلّ على مستوى التسمية فحسب (استبدال في الاستعمال اللغوي)؛ لأنّ الوظائف التي نهضت بها الحيّة في سفر التكوين هي نفسها التي قام بها إبليس/ الشيطان في القرآن: الإغراء بالأكل من الشجرة، ويسوّي النصّ الإنجيلي بين الحيّة والشيطان أو إبليس، في سفر الرؤيا 12: 9: «هذا التنين العظيم هو الحيّة القديمة، ويُسمّى إبليس والشيطان، الذي يضلّل العالم كلّه».

[59]- انظر: المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم، مادّة: حيّة، شيطان.

وحوّاء فيخرقا النهي، وسنبيّن، لاحقاً، أنّ العقاب الذي لحق بالحيّة، في تفسير الطبري، نفسه الذي أصابها، في سفر التكوين، وهو أمر يجعلنا نتساءل عن علّة تناسل هذه النصوص بعضها من بعض.

إننا، لكي نتبيّن فعل العقاب المسلّط على الكائنات المذكورة أعلاه، نرى من المفيد رسم الجدول الآتي:

الوظائف	الشخصيات	النصوص		
		التوراة	القرآن	تفسير الطبري، م1، ج1، من ص299 إلى 315
الخرق	آدم	- الأكل من الشجرة المحرّمة بإيعاز من حوّاء بعد أن أكلت هي منها.	الأكل من الشجرة المحرّمة في الوقت نفسه الذي أكلت فيه حوّاء منها.	الأكل من الشجرة المحرّمة بإيعاز من حوّاء بعد أن أكلت هي منها.
	حوّاء	- المبادرة بالأكل من الشجرة المحرّمة قبل آدم وإغراؤه بالأكل منها.	- الأكل من الشجرة المحرّمة في الوقت نفسه الذي أكل فيه آدم منها.	- المبادرة بالأكل من الشجرة المحرّمة قبل آدم وإغراؤه بالأكل منها.
	الحيّة	- إغراء حوّاء وآدم بالأكل من الشجرة.	- غير مذكورة	- حملها إبليس/الشيطان في بطنها والدخول به خفية إلى الجنّة، ليخاطب آدم وحوّاء، ويغريهما بالأكل من الشجرة.
	الشيطان	-غير مذكور.	- إغراء آدم وحوّاء بالأكل من الشجرة.	- إغراء آدم وحوّاء بالأكل من الشجرة.
العقاب	آدم	- الخروج من جنّة عدن والكدّ لكسب القوت بالشقاء والتعب وعرق الجبين.	- الخروج من الجنّة وخلق العداوة بينه وبين الشيطان والهبوط إلى الأرض.	- الخروج من الجنّة وخلق العداوة بينه وبين الحيّة والهبوط إلى الأرض.
	حوّاء	- الخروج من الجنّة وتكثير أوجاع المخاض وآلام الولادة، واشتياق الأنثى إلى الذكر وتسلّطه عليها.	- الخروج من الجنّة وخلق العداوة بينها وبين الشيطان والهبوط إلى الأرض.	- الخروج من الجنّة وإصابتها بالحيض كلّ شهر، وحَمْلُها كرها، وتكثير آلامها عند الوضع، والهبوط إلى الأرض.
	الحيّة	- إصابتها باللعنة وجعلها تسعى على بطنها وتقتات من التراب، وخلق العداوة بينها وبين المرأة وبين نسليهما.	- غير مذكورة.	- إصابتها باللعنة وتقبيح صورتها، وجعلها تسعى على بطنها وتقتات من التراب، وخلق العداوة بينها وبين أبناء آدم والهبوط إلى الأرض.
	الشيطان	غير مذكور.	- الهبوط إلى الأرض، وخلق العداوة بينه وبين أبناء آدم.	- الهبوط إلى الأرض، وخلق العداوة بينه وبين أبناء آدم.

إنّ ما يبرزه هذا الجدول هو الإجابة عن السؤال: من قام بفعل الخرق فتجاوز النهي الإلهي؟

إنّ مسؤولية فعل الخرق مختلف في شأنها، في النصوص المعتمدة في هذه الدراسة، فالنصّ التوراتي، والنصّ التفسيري الإسلامي، يحمّلان حوّاء مسؤولية الخرق، فهي التي بادرت بالأكل من الشجرة المحرّمة بإغراء من الحيّة (في سفر التكوين)، ومن الشيطان (في تفسير الطبري). وتتدعّم مسؤولية حوّاء في الخرق بذكر النصّ التوراتي، وتفسير الطبري أنّها زيّنت لآدم فعل الخرق، فأغرته بالأكل من الشجرة، وبذلك يكون آدم، في هذين النصّين، عنصراً ثانويّاً في فعل الخرق، وتابعاً لحوّاء في هذا الفعل، جاء في النصّ التوراتي ما يأتي: «وقال [الرّبّ الإله] لآدم: لأنّك أذعنتَ لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك»[60]. إنّ أكل آدم من الشجرة المحرّمة كان ناتجاً عن إذعانه لزوجته، وليس نابعاً من إرادته الذاتية، فيحمّل النصّ التوراتي، بذلك، المرأة مسؤولية فعل الخرق، ويبرّئ الرجل منها، أو يجعل مسؤولية الذكر ثانوية مقارنة بمسؤولية الأنثى الرئيسة.

والقارئ تفسيرَ الطبري يتبيّن أنّه لا يختلف كثيراً عن (سفر التكوين) في هذه المسألة؛ فحوّاء هي التي بادرت بالأكل من الشجرة المحرّمة، فخرقت، بذلك، النهي الإلهي. أمّا آدم/ الرجل، فقد أكل من الشجرة بعد إغراء وإلحاح كبيرين من المرأة. يقول الطبري في تفسيره، مركّزاً على دور حوّاء في فعل الخرق: «أخذت حوّاء، فأكلت منها [من ثمر الشجرة المحرّمة]، ثم ذهبت بها إلى آدم، فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها، وما أطيب طعمها، وأحسن لونها! فأكل منها آدم [...] ثم قال [الله]: يا حوّاء أنت التي غررت عبدي، فإنّك لا تحملين حملاً إلا حملته كرهاً، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً»[61]. وتُمعن الأنثى/ المرأة، في مرويات الطبري، في إغرائها، فتشترط على آدم الأكل من الشجرة المحرّمة مقابل السماح له بقضاء حاجته منها. يقول الطبري: «فدعاها آدم لحاجته، قالت: لا، إلا أن تأتي ههنا، فلمّا أتى قالت: لا، إلا أن تأكل من هذه الشجرة، قال: فأكلا منها...»[62]. إنّ هذه المرويات تجعل آدم/ الرجل مُغرَّراً به، غير مسؤول عمّا فعل، يتصرّف ببراءة الأطفال، فيكون تصرّفه، بذلك، منسجماً والمحيط الذي كان يعيش فيه، وهو محيط الطبيعة/ الفطرة. ويبدو أنّ محرّري هذه النصوص لم يتفطّنوا إلى أنّ الصّورة التي رسموها لحوّاء/ المرأة تبدو في نشازٍ مع الزّمن البدئي، الذي كانت تعيشه.

---

[60]- تكوين 3: 17

[61]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م 1، ج 1، ص 308

[62]- المصدر نفسه، م1، ج1، ص 309

وقد يكون من المفيد أن نشير، هنا، إلى أنّ العقاب الذي سُلّط على المرأة، في تفسير الطبري، لا يختلف كثيراً عن العقاب الذي لحقها في (سفر التكوين)، وقد جاء فيه: «ثم قال [الله للمرأة]: أكثّر تكثيراً أوجاع مخاضك، فتنجبين بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلّط عليك»[63]. والمُلاحظ أنّ الطبري يورد في تفسيره خمسة أخبار تؤكّد كلّها مسؤولية حوّاء في فعل الخرق، وفي إغراء آدم لتجاوز المحظور[64].

إنّ الطبري، في تفسيره، يخرج، في ما ذهب إليه في هذه المسألة، عن النصّ القرآني، فهذا النصّ (أي القرآن) حمّل آدم وحوّاء القدر نفسه من مسؤولية فعل الخرق، فهو، عندما يتحدّث عن هذا الفعل، يربط، دائماً، بين آدم وحوّاء في الأكل، نفهم ذلك من العبارة القرآنية الدّالة على أنّ أكل آدم من الشجرة كان مزامناً لأكل حوّاء، فزمن الخرق لديهما هو نفسه، دون أن يفصل أكل أحدهما عن أكل الآخر فاصل زمني. جاء في [سورة الأعراف 7: 22]: [فأكلا منها، فبدت لهما سوءاتهما]؛ لذلك كان عقابهما العقاب نفسه، وهو الإخراج من الجنّة، والهبوط إلى الأرض، والعداوة بينهما وبين الشيطان.

إنّنا نتبيّن من النصّ القرآني أنّ الأطراف الثلاثة: آدم، وحوّاء، والشيطان، متساوية في فعل الخرق؛ لذلك كانت متساوية في نوع العقاب، فالشيطان لم يأكل من الشجرة، لكن عقابه لم يختلف عن عقاب آدم وحوّاء؛ لأنّه أغراهما بالأكل. أمّا العقاب الذي سُلّط على الحيّة، في تفسير الطبري، فمرجعيته توراتية، وإن كان دورها يختلف عن دور حيّة سفر التكوين، فالحيّة في التفسير لم تُغر حوّاء بالأكل من الشجرة، مثلما فعلت في النصّ التوراتي، وإنّما ساعدت الشيطان على الدخول إلى الجنّة ليخاطب آدم وحوّاء، ويزيّن لهما فعل الخرق، يقول الطبري في إحدى المرويّات: «إنّ عدّو الله إبليس عَرَضَ نفسه على دوابّ الأرض أنّها تحمله حتّى يدخل الجنّة معها، ويكلّم آدم وزوجته، فكلّ الدوابّ أبت ذلك عليه، حتّى كلّم الحيّة، فقال لها: أمنعك من ابن آدم، فأنت في ذمّتي إن أنت أدخلتني الجنّة. فجعلته بين نابين من أنيابها، ثمّ دخلت به، فكلّمهما من فيها، وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله، وجعلها تمشي على بطنها. قال: يقول ابن عبّاس: اقتلوها حيث وجدتموها، اخفروا[65] ذمّة عدّو الله فيها»[66].

---

[63]- تكوين 3: 16

[64]- انظر: جامع البيان...، م1، ج1، ص ص 208- 210

[65]- اخفروا: انقضوا.

[66]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م1، ج1، ص 310

تختلف الأدوار إذاً، لكنّ العقاب يظلّ واحداً. لقد حشر الطبري الحيّة في الأحداث، على الرغم من عدم ذكرها في النصّ القرآني لسببين رئيسين؛ أوّلهما أنّ الحيّة عنصر فاعل في إغراء حوّاء بالأكل من الثمرة المحرّمة، اعتماداً على الرواية التوراتية، وتدلّ مرويات الطبري، في تاريخه وتفسيره، على أنّه كان ملمّاً بالكثير من جوانب التراث الدينيّ اليهودي، وثانيهما أنّه أراد، بإدماجه الحيّة في هذه الأحداث، أن يعلّل كيفية دخول الشيطان الجنّة لإغراء آدم وحوّاء بفعل الخرق، بما أنّ الشيطان كان خارج هذا الفضاء بعد أن غضب الله عليه، بسبب رفضه السجود لآدم، ففعلُ الإغراء كان مستحيلاً لو لم تحمل الحيّة إبليس، وتدخُلْ به الجنّة متخفيّاً في بطنها.

لقد حمّل النصّ التوراتي وتفسير الطبري المرأة القسط الأكبر من وزر فعل الخرق، وسوّى القرآن بينها وبين الرجل في هذا الوزر، لكن إلى أيّ حدّ يمكن أن يكون النصّ الديني قد أنصف المرأة في فعل الخرق المحظور، وفي ما نشأ عنه من فعل العقاب؟ هل نهى الله المرأة مباشرة عن الأكل من الثمرة المحرّمة؟ أو هل بلغها النهي الإلهيّ عن طريق آدم وليس عن طريق الإله؟

إنّ القراءة المتأنّية للنصوص المقدّسة يمكنها أن تعدّل بعض المواقف، التي اتُّخِذت ضدّ المرأة عندما حمّلتها مسؤولية فعل الخرق، وتجاوز النهي الإلهي، فبعض المقاطع في النصوص المقدّسة تخفّف من عبء المسؤولية التي حمّلتها بعض القراءات للأنثى، وكادت تبرّئ الذكر، تماماً، من عبء الخرق. إنّنا نقرأ في سفر التكوين أنّ النهي عن الأكل من الشجرة المحرّمة كان سابقاً لخلق حوّاء، بما أنّ الأنثى لم تخلق إلا بعد شعور آدم بوحدته وغربته وسط كونٍ جميع كائناته كلّ واحد منها يتواصل مع شبيهه، فيجد فيه أنسه وسَكَنَهُ. جاء في سفر التكوين: «وأخذ الرّبّ الإله آدم ووضعه في جنّة عَدْنٍ لِيَفْلَحَها ويعتني بها. وأمر الربّ الإله آدم قائلاً: كُلْ ما تشاء من جميع أشجار الجنّة، ولكن إيّاك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ؛ لأنّك حين تأكل حتْماً تموتُ»[67]. لم يُبلّغ الرّبّ الإله، إذاً، المنع للأنثى بخطاب مباشر؛ بل بلّغها النهي عن طريق آدم، ولا نعلم أنّ آدم بلّغها هذا الحظر إلا على لسان الحيّة، عندما سألت حوّاء: «أحقّاً أمَرَكُمَا الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنّة؟ فأجابت المرأة: يمكننا أن نأكل من ثمر الجنّة كلّها ماعدا ثَمَرَ الشجرة، التي في وسطها، فقد قال الله: «لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا»[68]. فالنهي في هذا المقطع لا يرد في شكل خطاب مباشر، وإنّما في شكل سرد للأقوال.

[67]- سفر التكوين 3: 15، 16، 17

[68]- سفر التكوين 3: 1، 2، 3، 4

وتتأكّد هذه الفكرة، كذلك، عندما يتحدّث النصّ التوراتي عن علم الربّ الإله بفعل الخرق، فإذا به يتوجّه باللوم والسؤال إلى آدم دون حوّاء، ويؤكّد خطابه أنّ النهي عن الأكل من الشجرة المحرّمة كان قد وجّه إلى آدم وحده، يقول الرّبّ مخاطباً آدم: «...من قال لك إنّك عُريان؟ هل أكلتَ من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟»[69]. فموضوع الاستفهام، هنا، يدور حول الأكل من الثمر المنهي عنه، ودراسة الضمائر في هذه الشواهد مفيدة، والضمير يحيل فيها على المخاطَب المذكّر المفرد، وهو آدم. ونتبيّن من الشاهدين السّابقين أنّ الخطاب لم يوجّه من الرّبّ الإله مباشرة إلا إلى الذكر دون الأنثى.

أمّا في النصّ القرآني، فإنّه بالإمكان أن نعثر على نوعين من الخطاب المباشر؛ النوع الأوّل من الخطاب موجّه إلى آدم وحوّاء معاً، وفيه نهي عن الأكل من ثمر الشجرة المحرّمة، ونقرأ هذا الأمر في سُورَتَيْ البقرة والأعراف، والعبارة نفسها مكرّرة فيهما، جاء في السورة الأولى: [لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين][70]، وفي هذين الموضعين من النصّ القرآني يوسوس الشيطان إلى آدم وحوّاء معاً، ليغريهما بخرق النهي، ولا يتحدّث القرآن عن السابق في الأكل، فيكون الإغراء بذلك شاملاً لآدم وحوّاء، ويتّم فعل الأكل في الوقت نفسه.

أمّا النوع الثاني من الخطاب، فمثير للانتباه؛ لأنّه يخصّ آدم دون حوّاء في فعلي النهي والإغراء، فهذا الخطاب الوارد في سورة طه موجّه إلى آدم وحده، وفيه تحذير له، دون حوّاء، من فتنة الشيطان وإغرائه، وما يمكن أن ينجرّ عن ذلك من إخراج الذكر والأنثى من الجنّة: [فقلنَا يا آدم! هذا عدّو لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى][71]. وتذكر السورة نفسها أنّ الشيطان وسوس إلى آدم وحده، فيكون الإغراء بالأكل من الشجرة واقعاً على آدم، في حين تُستبعد حوّاء منه، فيكون آدم بذلك قد تأثّر بإغراء الشيطان، فأغرى زوجه بالأكل [فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدّلك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى فأكلا منها...][72]. والمُلاحظ، في هذه السورة، أنّ عبء الخرق يتحمّله آدم دون حوّاء؛ لذلك لا نجد عقاباً موجّهاً إلى الأنثى [وعصى آدم ربّه فغوى][73]، وكان عقاب آدم، في هذه السورة، هبوطه والشيطان إلى الأرض عدّوين لَذُودَين:

---

[69]- سفر التكوين 3: 11، 12

[70]- البقرة 2: 35

[71]- طه 20: 117

[72]- طه 20: 120، 121

[73]- طه 20: 121

[اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدّو][74]. وقد نسبت الغواية والعصيان في الآية (121 من سورة طه) إلى آدم وحده، وفسّر الطبري العصيان والغواية المُسْنَدَيْنِ إلى آدم بقوله: «وخالف [آدم] أمر ربّه، فتعدّى إلى ما لم يكن له أن يتعدّى إليه من الأكل من الشجرة التي نهاه عن الأكل منها»[75].

إنّه يمكننا أن نذهب إلى القول بتغيّر موقف النصّ القرآني من مسألة خرق النهي والمسؤول عنه، ويبدو أنّ هذا الموقف تحوّل من تحميل آدم وحده وزر هذا الفعل في المرحلة المكّية (وقد عبّرت عن هذا الموقف الأوّل سورة طه، التي صنّفها الدارسون المعاصرون ضمن المرحلة المكّية الثانية[76]) إلى تحميل هذا العبء لكلّ من آدم وحوّاء في المرحلة المكّية الثالثة أو الأخيرة، وقد عبّرت عن هذه المرحلة سورة الأعراف، بينما عبّرت سورة البقرة عن المرحلة المدنيّة[77]، ويمكن أن يُعزا هذا التبدّل في الموقف إلى تأثُّر المسلمين الأوائل بالتراث الديني اليهودي، الذي حمّل المرأة القسط الأوفر من المسؤولية في فعل الخرق، وقد تجلّى لنا هذا التأثّر في تفسير الطبري، وقد سبق أن تبيّنا أنّ الكثير من المرويات الواردة في تفسيره لا تختلف عمّا نقرأه في (سفر التكوين)، وكان دور المرأة في هذا التفسير لا يختلف عن دورها في النصّ التوراتي؛ إذ كانت، في كلا النصّين، العنصر الفاعل في تحريك الأحداث، والدفع بها نحو فعلي الخرق والعقاب.

إنّ وظائف المنع، والخرق، والعقاب، متتابعةً، تنشأ الواحدة منها عن السابقة لها، وهي تخضع في ذلك للنظام الذي يقتضيه الكون السردي، وإذا ما كان في المنع حفاظ على النظام في الكون، وفي الخرق إدخال فوضى على هذا النظام، الذي يُراد تثبيته، فإنّ العقاب يمثّل سعياً إلى استرجاع النظام المفقود، وإبعاداً للفوضى عنه، لكن هذا الاسترجاع لن يتمّ، بما أنّ الفوضى تظلّ ملازمة النظام الكوني طوال الحياة البشرية. أمّا في نظام القصّ، فإنّ وظيفة العقاب تمثّل سعياً إلى تقويم إساءة، أو إصلاح افتقار، يتكفّل البطل بالنهوض به ليعود بالأمور إلى الوضع الأصل.

---

[74]- طه 20: 123

[75]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م9، ج 16، ص 245

[76]- انظر: المسعودي، حمادي، الوحي من التنزيل إلى التدوين، دار سحر، تونس 2005م، ص 116

[77]- انظر: المرجع نفسه، ص 117

قائمة المصادر والمراجع

- ابن منظور، أبو الفضل، لسان العرب، دار الجيل، بيروت/ لبنان، 1988م.
- حنون، نائل، عقائد ما بعد الموت، مطبعة دار السلام، بغداد، العراق، ط1، 1978م.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ط1، 2001م.
- فغالي، بولس، الجامع المحيط في الكتاب المقدس والشرق القديم، جمعية الكتاب المقدس، والمكتبة البولسية، بيروت/ لبنان، ط1، 2003م.
- المسعودي، حمادي، الوحي من التنزيل إلى التدوين، دار سحر، تونس، ط1، 2005م.
- André la coque et Paul Ricœur penser la bible ed.seuil, Paris, 1998.
- Marcel bernos sexualité et religions ed.C.E.R.F, Paris, 1988.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2015

All rights reserved © 2015